المشكاة
مجلّة علميّة محكّمة
العدد السابع- 2009

II - تقديم أطروحات وبحوث جامعية

قراءة في كتاب الأب موريس بورمانس : الروّاد الأوائل للحوار الإسلامي - المسيحي

د. محـــرز الحمـــدي
المعهـــد العالي للحضارة الإسلاميّـــة
جـــامعـــة الزّيتـــونة (تـــونس)

صدر للأب موريس بورمـــانس(*) كتاب قيّـــم، ضمن " سلسلة التاريـــخ الحيّ "، بعنـــوان : **الروّاد الأوائل للحوار الإسلامي- المسيحي**(**)، تناول فيه بالعرض المسيرة الفكريّـــة والرّوحيّة لرجال أربعـــة، منهم من كان من رجال الكنيســـة المسيحيّـــة (الكاثوليكيّـــة) ومنهم من عـــرف أكثـــر باستشراقـــه ونضاله في سبيل انفتاح الحضارة المسيحيّـــة على الحضارة الإسلاميّـــة.

وهـــذه الوجوه الأربعـــة التي أقرّ الأب بورمانس بريـــادتها في إطار الحوار الإسلامي المسيحي هي على التوالي، وحسب ترتيبها في المؤلَّف :

*) هو أستـــاذ متميّز بالمعهـــد البابوي للدّراسات العربيّـــة والإسلاميّـــة بروما.

**) Maurice Borrmans, Prophètes du dialogue islamo-chrétien, CERF, Paris, 2009, (257 pages).

المستشرق لويس ماسينيون، ويوحنا محمد عبد الجليل والأب لويس قارداي، وأخيرا الأب جورج شحاتة قنواتي.

وقسّـــم المؤلِّف عمله إلى قسمين كبيرين، خصّص الجزء الأكبر منه (حوالي 148 صفحـــة) لعرض المسيرة الطّريفة لكلّ من هؤلاء الرّوّاد الأربعـــة، مركّزا على ما فيها من خصوصيّـــة، ومشيرا إليه حتى في العناوين التي قدّم بها لها.

يتألّف الجـــزء الأوّل من أربعـــة أبـــواب، قدّم في أوّلها للمستشرق **لويس ماسينيـــون (1883-1962)** عارضا مسيرتـــه الفكريّـــة والرّوحيّـــة، وانجذاب هذا الرّجل إلى العلـــم أوّلا والدين ثانيا، حتى عـــدّ من أوّل الدّعاة إلى الحوار بين المسيحيّـــة والإسلام، حـــوار تأهّـــل له بحكـــم ما حصل له من معارف عن الحضارة الإسلاميّـــة، بوصفـــه مستشرقا وباحثا علميّا فيها، وبحكم ما خصّه به اللّه من موهبة في سبيل ذلك.

لقـــد كانت علاقـــات لويس ماسينيـــون وطيدة بالكنيسة المسيحيّـــة وكذلك بالأوســـاط والمنتظمات الإسلاميّـــة، العلميّـــة والسّياسيّـــة، مما أهلّه ليكـــون من خير المنادين للتّقارب بين الإسلام والمسيحيّـــة. ومهما يكن من أمر ما شاع من أخبار حول انتسابه إلى مصالح الاستخبارات الفرنسيّـــة، فإنّ أعماله العلميّـــة والفكريّـــة لا تزال مرجعا من المراجع الأساسيّـــة لكلّ من يطلب فهم الحضارة العربيّـــة الإسلاميّـــة، ولبنةً من اللّبنات الأولى في توجّه كلّ من الإسلام والمسيحيّـــة إلى سبيل الحوار، واختيارهما نبذ الصّراع وحوار الصّم.

وضمّـــن الأب بورمانس هذا الباب الأوّل موجـــزا (حوالي 4 صفحات) عن أهمّ الأحداث والمراحل في حياة الرّجـــل.

وفي الباب الثاني من الجزء الأوّل يعرّف المؤلّف بمسيرة الأب **يوحنّـــا محمـــد عبد الجليل (1904- 1979)** وبما بذله من جهود وبمـــا اضطلـــع به من دور في دفع الحوار الإسلامي المسيحي. ولا تخلو هذه المسيرة من طرافـــة وغرابة، بما تثيره في نفوسنا من حيرة. شابّ مسلم، تلقّى تربية

دينيّـــة عميقـــة في أسرته وانتقل إلى الحجّ في سنّ العاشرة صحبة والديه، وكان تلميذا لامعا حصل على الباكالوريا بالمعهد الثّانوي بالرّباط سنة 1921 وانتقل على إثرها إلى باريس وأحرز الإجازة في اللّغة العربيّـــة وآدابها سنة 1925. ومنذ ذلك الحين أخذت تشدّه إلى المسيحيّـــة روابط ووشائج غامضـــة إن لم نقل غريبة وذلك بعد إقامـــة دامت ثلاث سنوات متخليا عن الدّين الإسلامي. واستمرّ اهتمامه بالمسيحيّـــة إلى أن قاده إلى الانتساب إلى طائفـــة الفرنسيسكان التي قبلتـــه أبا من آبائها ورجلا من رجالها سنة 1935.

ونظرا إلى علم الرّجـــل وسعـــة اطّلاعـــه على الحضارتين العربيّـــة الإسلاميّـــة والمسيحيّـــة، فقد دعـــي إلى التّدريس في الجامعات الكاثوليكيّـــة بفرنسا وغيرها. وتُنسب إليه عـــدّة مؤلّفات في الدّين الإسلامـــي وفي ما يمكن أن يسمّى اليوم بعلم اللاّهوت المقارن، تبعا لما ألّفه من أعمال تتولى عرض الأشياء للمسيحيين من زاويـــة نظـــر المسلمين وللمسلمين من زاويـــة نظـــر المسيحيين، مثل ما كتبه عن السيّـــدة مريـــم، رضي الله عنها.

كما ينسب إليه دور فعـــال في إعداد المجمع الفاتيكـــاني II، الذي انفتحت فيه هـــذه الأخيرة على الأديـــان الأخرى. ولئـــن كان الرّأي العـــامّ المغربي قـــد وقف من الأب يوحنّـــا - الذي توفّي سنـــة 1979 إثـــر مرض عضال- موقفا سلبيا وتنكّـــر له، حتى أنّـــه وُضـــع في عـــداد الأموات - نظرا لما كان يحفّ بتمسّحـــه من ظروف حالكـــة لم يدّخـــر فيها المستعمـــر جهـــدا لإحبـــاط عزائم الشّعب المغربيّ وتَوْقَهُ إلى الحريّـــة، خاصّـــة أيام محنـــة الرّيف المغربي سنة 1928، وبروز الوعي الوطني عند شعوب المغرب العربيّ - فإنّ هذا الرّجل قد حرص على أن يبقى وفيّا لإسمه الأصلي (محمـــد عبد الجليل) وطفولته ونشأتـــه التي يتشرّف بالانتساب إليها، في الرّيف المغربي!

ويختم المؤلّـــف، كما في كلّ من الأبواب الأربعـــة، عرضـــه لمسيرة يوحنّا محمـــد عبد الجليل بصفحات أربعـــة يضمّنها موجزا عن أهمّ الأحداث والوقائع الملخّصـــة لحياتـــه.

واهتمّ الباب الثالث من الفصل الأوّل بمسيرة الأب **لويس قارداي (1904-1986)**. ورغم ما حفّ بالسنوات الأولى من حياته من غموض بشأن مولده وطفولته، فإنّ حياته تعدّ نموذجا لهذا المدّ والجزر بين الكنيسة والعلم، بين رجل الدّين المنتسب إلى طائفة الدومينيكان والجامعيّ المستشرق الذي سخّر نشاطه العلميّ للتّعريف بالإسلام وحضارته والتّهيئة لخير السبل التي يمكن أن تلتقي فيها الدّيانتان : المسيحيّة والإسلام. ولعلّها كانت الصّوفيّة وما تحتويه من قواسم مشتركة بينهما.

أمّا الباب الرّابع فقد خُصِّصَ للأب **جورج شحاتة قنواتي (1905-1994)**، الذي لا تقلّ مسيرته غرابة عن الثلاثة الأوائل. فهو مولود بالإسكندريّة من أسرة يونانيّة تنتسب إلى الكنيسة الأرتودوسكيّة الشّرقيّة ومن أصل سوري، واعتنق الدّيانة الكاتوليكيّة المسيحيّة "لأسباب شخصيّة" على حدّ تعبير الأب بورمانس.

وقد انتقل في مسيرته الفكريّة والعلميّة ما بين القاهرة وباريس والجزائر، من الكيمياء والصّيدلة إلى اللاهوت، مرورا باللّغة العربية وآدابها. وهو لا ينفكّ يصرفُ جهوده للتّعريف بما في الدّيانتين من أسس إنسانيّة هي خير ما يمكن اعتماده لتشييد صرح الإنسانيّة الجديدة وإقامتها على الحوار المتعقّل والمتّزن.

إنّ ما يتمتّع به كلّ هؤلاء الرّجال الأربعة من تعدّدية ثقافيّة وعقديّة، من حيث الولادة والمنشأ، ولكن كذلك من حيث اختياراتهم الجريئة التي نقلتهم من هنا إلى هناك في عالم العقيدة والدّيانة، أي إلى أعمق أعماق الحياة الرّوحانيّة والفكريّة، وكذلك من حيث تخصّصاتهم المهنيّة التي أثّرت فيهم آخر الأمر بعمق، إضافة إلى ما حصل لهم من ثراء وتعدّد في ما ربطهم من علاقات شخصيّة، بالإنسان أينما كان، إن كلّ ذلك هو الذي أهّلهم وجعلهم من "المصطفين" الذّين أوكل إليهم التّاريخ مهمّة على هذا القدر من السّموّ ألا وهي مهمّة التّهيئة للحوار بين هذا الذي كان يسبّب الفرقة بين البشر وهو تعدّد عقائدهم وتباينها.

ولم يكن من السّهــل التّأسيس لمثــل هذا الحوار، في ظروف كانت تبدو فيها المسيحيّــة - ولا تزال - ديانة المستعمــر والمتسلّــط. لذا فإنّ هذا الجهــد الذي بذلــه هؤلاء الرّواد جدير بالتّقدير والاحترام، مهما كان موقفنا منه.

وما هو جدير بالاحترام أيضا هو هذا الجهد الذي بذلــه - كعادتــه - صديقنا الأب بورمانس في الترجمــة لأصحاب الرّيــادة في الحوار الإسلامي-المسيحي، وهو لا يمثّل إلا جزء ضئيلا من الجهود التي دأب على بذلها خدمــة للإسلام وللمسيحيّــة وللتّقارب بينهما.

وتضمّن الجزء الثاني من هذا الكتاب (حوالي مائة صفحــة) جردا وحصرا لمؤلّفات هؤلاء الرّواد، الفرديّــة والمشتركــة، من كتب ومقالات ومشاركات في مؤتمرات ومؤلّفات جماعيّــة، ومحاضرات إلخ...، منها ما جمعــه الأب بورمانس نفسه، ومنها ما اعتمــد فيه على جهــود سابقــة جاءت من داخل الكنيســة ومن خارجها. ولا يخفى علينا ما تمثّلــه هذه البيبليوغرافيا من سند وعون للباحث في المستقبل، نظرا للجهود التي تمكّنــه من اقتصادها وللأرضيّــة التي تهيّئها لكلّ بحث مستقبلي، إما حول كلّ من الرّجال الأربعــة على حدة وإما حول مشروعهم المشترك، ألا وهو الحوار والتّقارب السّلميان بين الدّيانتين.